﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾

[هود: 42 - 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الاستجابةُ لأمر الله تعالى هي طريقُ النَّجاةِ الوحيدة

لمّا ذكر ﷻ في الآيات السّابقة أمرَه بركوبِ السفينة، وحَمْل ما يجب حَمْلُهُ؛ بَيَّن هنا آثار الاستجابة لأمر الله تعالى، وأنَّها طريق النَّجاةِ، فبيَّن حال السَّفينة، وهي تمخر بهم عُباب الماء بعد أن ذكر الله ﷻ أمْرَ نوحٍ لمن معه بركوب السَّفينة مُتَوكِّلين على الله تعالى، ثُمَّ ذكر ما دار بين نوحٍ وابنه من مُحاوراتٍ في تلك اللَّحظات الحاسمة المؤثِّرة، التي يبذل فيها كُلُّ أبٍ ما يستطيع بذله من جهود لِنَجاة ابنه وفلذة كبده[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَعۡزِلٖ﴾: أصلُ (عزل): يدلُّ على تَنحيةٍ وإمالة[2]، وعزله يعْزِلُهُ؛ إذا نَحّاهُ في جانبٍ[3]، والمعْزِلُ: مَكانُ العُزْلَةِ، أي: الانفراد، والمعنى هُنا: كان في مكان عَزلَ فيه نفسَهُ عن أبيه وعن السَّفينة[4]، ومعنى ﴿مَعۡزِلٖ﴾: مكانٍ مُنقَطعٍ، يُقال: عزلتُ الشَّيءَ نحَّيتُه، ورأيته في مَعزلٍ، أي: في ناحيةٍ عن القوم مُعتزلًا[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (عزل).
(3) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 162.
(4) النَّيْسابوري، غرائب القرآن: 4/23.
(5) الخليل، العين: (عزل).

2) ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أصلُ (أوى): يدلُّ على تَجمُّعٍ[1]؛ وتأوَّتِ الطَّير؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض، فهنَّ أويٌّ[2]، وأويْتُ عن كذا، أي: تَرَكْتُ العَمَلَ، ورَجَعْتُ إلى مَأْوايَ[3]، والمَأْوى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْوى إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا، والمعنى هنا: أرجِعُ، وألجأُ، وأنْضمُّ إلى جبل[4]، ومعنى ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أرجِعُ، يُقال: أوى الإنسان إلى منزله يأوي أُويًّا؛ إذا رجع[5].

3) ﴿يَعۡصِمُنِي﴾: أصلُ (عصم) يَدُلُّ عَلَى إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ، ومِنْ ذَلِكَ العِصْمَةُ: بمعنى الحفظِ والمنع[6]، يُقال: واعتصمتُ باللّه، أي: امتنعتُ به منَ الشَّرِّ[7]، وأعْصَمْتُ الرَّجل: هَيَّأت له ما يَعْتَصِم به[8]، والمعنى هُنا: يَمْنَعُني (منَ الماءِ)، فَلا أغْرَقُ[9]، ومعنى ﴿يَعۡصِمُنِي﴾: يمنعني، يُقال: عَصَمَ يَعْصِمُ عَصْمًا: منع ووقى[10].

4) ﴿وَحَالَ﴾: أصل الحَوْلِ تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصاله عن غيره، وكُلُّ ما حَجَزَ بينَ شَيئَينِ؛ فقد حالَ بينَهما[11]، كأنَّما تَحوَّل إلى المكان الذي بينهما، أي: وقف فيه، فحال بينهما[12]، والمعنى هُنا: وفَصَلَ الموجُ بهديرِهِ وسُرعته بين الابن وأبيه[13]، ومعنى ﴿وَحَالَ﴾: حَجَزَ وفَصَلَ، يُقالُ: حال الشَّيءُ بين الشَّيْئَيْنِ يحولُ حولًا وتحويلًا، أي: حَجَزَ[14].

5) ﴿ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾: أصل (غرق) يَدُلُّ عَلى انتِهاءٍ في شَيْءٍ يَبْلُغُ أقْصاهُ[15]، ومعنى ﴿ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾: المهلكون بالغرق، أغرَقَهُ في الماءِ إغْراقًا مثلَ غرَّقَهُ تغْريقًا، فَهو مُغْرَقٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوى).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (أوى).
(4) الرّاغب، المفردات: (أوى)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/39، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/134.
(5) الخليل، العين: (أوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، الجوهري، الصّحاح: (عصم).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (عصم).
(8) الخليل، العين: (عصم).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/39، وابن جرير، جامع البيان: 15/331.
(10) الزَّبيدي، تاج العروس: (عصم).
(11) الزَّبيدي، تاج العروس: (حول).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حول).
(13) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/209.
(14) ابن منظور، لسان العرب: (حول).
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).

وغَريقٌ[1]، والغرقُ الرُّسوب في الماء وفي البلاء[2]، والمعنى هُنا: كانَ ممَّنْ أهْلَكَهُ اللّه بالغَرَقِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مشهدُ الجبالِ المائيةِ تُزاحم الجبالَ الصَّخريَّة بينهما جبالٌ عاطفيَّةٌ؛ مشهدٌ لا يتكرَّر

ترسم الآيتان مشهدًا من مشاهد التّاريخ البشريِّ بعنايةٍ بلاغيةٍ، وبسرٍّ بيانيٍّ لم يشهده البشر من قبلُ، فكأنَّهم يرونه بأمِّ أعينهم، ذلك أنَّ هذا المشهد يُترجم حالةَ إنقاذ البشريَّة، فهو مشهدٌ يخصُّ الجميع، ويتعلَّق بكلِّ نفسٍ تتنفَّس على أرض البسيطة، فالسَّفينة تسير بمن فيها في موج عظيم كالجبال في علوِّها وقسوتِها وعظمتها وجبروتها وقطعها للأنفاس، وفي هذه الحال العصيبةِ تتحرَّك العاطفة العجيبة، من أبٍ يرى ابنه يغرق في ظلماتِ الماءِ، فيناديه نداءَ الباكي المشفق على المصير الحتميِّ، لكنَّ الإجابة كسرت كلَّ توقُّع، وأتتْ على كلِّ شعور لتفجأه بجواب الكفرِ، بأنَّه سيعتصم بجبلٍ صخري من الجبل المائي، فكان التَّنبيه الذي لا استجابة له بأنَّه لا عاصم اليوم من أمر اللّه تعالى، لكن أنّى لهذا الجاحد أن يفقه رسالةَ الأبِ بعد طول زمانٍ من الدَّعوة، والتَّربيَةِ، والرِّعاية، فقد ران على قلبِه كسبُه، وجحوده، وكفرُه، وحينها فصل بينهما الموج ليُنهي حوارًا، فيكون عبرةً لكلِّ زمانٍ قادم، وكلِّ جيلٍ لاحق.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) في ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾:

الإشـــارة إلى سرعة امتلاء الأرض من الماء وصيرورته فيها أمثال الجبال عَقِبَ ركوبهم من غير تراخٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ تحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ من المعنى:

الأول: أن تكون واو الحال، وتكون جملة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ حالًا

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (غرق).
(2) الرّاغب، المفردات: (غرق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/419.

إمّا من محذوف، دلَّ على هذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، والتَّقدير: فَرَكبوها مُسَمّينَ، وهي تجري بهم، وهم فيها[1]، فالجملة حالٌ من الفعل المقدَّر (فركبوها)؛ لظهوره في قوة الملفوظ، وتقدير: (فركبوا) للدَّلالة على سرعة امتثال الأمر - لاسيَّما - إذا كان الأمر منه تعالى واجبًا.

وإمّا أن تكون حالًا من الضَّمير المُستتر في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقدير: جريانُها استقرَّ باسم الله حالَ كونها جاريةً[2].

الثّاني: أن تكون الواو استئنافيَّةً، وجملة ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ مكوَّنة من مبتدأ وخبر، وهو إخبارٌ بما كان بعد الأمر بركوبها.

الثّالث: أن تكون الواو اعتراضيَّةً، وجملة ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ معترضةً، دعا إلى اعتراضِها هنا ذكرُ ﴿مَجۡرٖىٰهَا﴾؛ إتمامًا للفائدة، ووصفًا لعِظَم اليوم، وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم[3]؛ وهذا أوجَهُ الأوجه، فمعنى الحال مضطربٌ فيها؛ إذ كيف ركبوا في حال كونها تجري في موجٍ كالجبال؟ وكذلك معنى الاستئناف، فلا يتَّجه لاسيَّما بعد ذكر نداءِ نوحٍ عليه السلام ابنَه، وأمّا الاعتراض؛ فلبيانِ هولِ الأمر، ولعطفِ نداءِ نوحٍ عليه السلام على قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، فيكون الاعتراضُ وجيهًا، ومتمِّمًا للفائدة المرجوَّة.

سِرُّ استعمال الضَّمير ﴿وَهِيَ﴾:

تقويةُ النَّظم وإيجازُ اللَّفظِ وتكثير المعنى من محاسنِ الكلام

اختار النَّظم الكريم - في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ - الضَّمير البارز ﴿وَهِيَ﴾ الراجع إلى السَّفينة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ إذ قد أنَّث الضَّمير دون تذكيرِه كما سبق بيانه، وذلك إيجازٌ للفظِ، وتنبيهٌ على خصوصِ جريانِها؛ فإنَّ الضَّمير يكون أقوى

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/396، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/135.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/74.

في لفت الانتباه من الاسم الظّاهر؛ إذا كان معلومًا لدى المخاطَب، ففرقٌ بين قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، وبين قولنا: (والسفينة تجري بهم)، من حيث قوَّةُ السَّبك، وتأثير اللَّفظ ووجازته.

دلالةُ تقديم المُسنَد إليه ﴿وَهِيَ﴾:

تَـقْـويـةُ الحكم وتحقيق وقوعه

قُدِّم المسندُ إليه ﴿وَهِيَ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿تَجْرِي بِهِمْ﴾؛ لغرضِ تقويةِ الحكم وتحقيقه[1]، وللفتِ الأنظارِ إلى عجيبِ ذلك المشهدِ، وإنَّما جاء التأكيد من الإسناد مرتين؛ مرَّةً بإسناد الخبر إلى المبتدأ، وأخرى بإسناد الفعل إلى الفاعل.

غرضُ استعمال المضارع ﴿تَجْرِي﴾:

تصوير جريان السَّفينة كأنَّها حاضرةٌ في مرأى السّامعين

مشهد الطّوفان حدثٌ قديمٌ، لكنَّ القرآن قصَّه علينا، وكأنَّه يقع الآن، فجاء التَّعبير بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ دون الماضي؛ لاستحضار الحالة، وتصوير الحدث، ونقل المشهد، وإشعار المخاطَبِ بتفاصيل الحدثِ، فوصف جريانها بالحالِ لا بالماضي، لتكون حاضرةً في مرأى السّامعين، وفي ذهن المخاطَبين، وفي مشاعر المستجيبين، إحياءً للقلوبِ، وإنعاشًا للصدورِ، وتحريكًا للعقول.

سرُّ استعمال ﴿فِي مَوْجٍ﴾:

تشبيه المُحاطِ بالأمواجِ بما هو غارقٌ فيها للإيماء إلى معجزةِ النَّجاة

ظاهر النَّظم في قوله تعالى: ﴿فِي مَوْجٍ﴾ يدلُّ على أنَّ السَّفينة تجري داخل الموج، ولكن المُراد أنَّ الأمواج لَمَّا أحاطت بالسَّفينة من الجوانب كلِّها شُبِّهت بالَّتي تجري في داخل الأمواج[2]؛ لأنَّ الماء لمّا كان مهيَّأً للإغراق؛ كان السَّير على ظهره من الخوارق، وأشار إلى ذلك بالظَّرف، فقال: ﴿فِي مَوْجٍ﴾[3]، فاستعمال حرف (الوعاء)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74.
(2) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/130.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.

لتشبيه ما هو مُحاطٌ بالأمواجِ، بما هو فيها؛ لشدَّة اقترابِ الأمواجِ من ظهرها وجوانبِها العليا، كأنَّ حرف الظَّرفيَّة ينطق بالإغراقِ، والنَّظم ينطق بالنَّجاةِ، ونكتَتُهُ بيانُ أن لا نجاةَ في ذلك اليوم إلّا بقدرةِ الواحد الأحد.

الغرض من تنكير: ﴿مَوْجٍ﴾:

بيانُ عِظَم ذلك الموج وشدَّة الطُّوفان

نُكِّر لفظُ ﴿مَوْجٍ﴾ للدَّلالة على أنَّه موجٌ عظيمٌ هائلٌ في غاية الشِّدَّة، والموجُ ما ارتفع من الماء بسبب اشتداد عصف الرّياح، وقد شبَّهه الله تعالى في عظمته بالجبال[1]، فهذا التنكير يدلُّ على عِظَم الطُّوفان، ويُؤكِّده التَّشبيه.

نكتةُ إفرادِ: ﴿مَوْجٍ﴾:

أفرد النَّظم لفظَ الموج، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، ولم يقل: (في أمواجٍ كالجبال)، مع أنَّ دواعيَ الجمع ظاهرةٌ، من مثل التَّشبيه بالجبالِ، وهي؛ وجمعُ الأمواج أهيَبُ من إفرادِها، ووراء ذلك أمران:

الأوَّل: أنَّ إفرادَ الموجِ دالٌّ على ما يقتضيه المعنى، فإذا كانت السَّفينة تجري في موجٍ واحدٍ كالجبالِ، ويُحيط بها من كلِّ جانبٍ؛ فكيف ببقيَّة الأمواج في ضخامتها وعظمتها؟ فهي أمواجٌ لا موجٌ واحدٌ، فذِكرُ الموجِ الواحد للدَّلالة على ما وراءه من بقيَّة الأمواج؛ فأتى النَّظم بما يقتضيه الحال، وهو أقوى في التَّصوير واستحضار المشهد.

الآخر: أنَّ هذا الموجَ مشبَّهٌ لا بجبلٍ واحدٍ بل بسلسلةِ جبالٍ، ففهمنا من ذلك أنَّ الموجَ في أصله واحدٌ، وفي تضاريسه العليا أمواجٌ كالجبالِ، وبه يكون إفرادُ المشبَّه مومئًا إلى قاعدة الموج، وجمْعُ الجبال إيماءٌ إلى ظاهرِ الموجِ وأعلاه، وبه يحسُن التَّشبيه إيجازًا وكثرةً، وهذا من بديع تشبيه المفرد بالجمعِ في القرآن الكريم.

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/118.

دلالةُ التَّشبيه في: ﴿فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾:

تصوير شِدَّة الهول والفزع والمنظر المهيب العجيب للطّوفان العظيم

الموج ما ارتفع من الماء؛ إذا اشتدَّت عليه الرّيح، وشبَّهه النَّظمُ الكريم بالجبال في عِظَمه وتراكُمه وارتفاعه على الماء[1]، وهذا يدلُّ على حصول رياحٍ عاصفةٍ شديدةٍ حينذاك، والمقصود: بيان شدَّة الهول والفزع[2]، وهذا التَّشبيه يرمي إلى تصوير الموج عاليًا ضخمًا، فتوحي كلمة (الجبال) به إلى النَّفس، مع أنَّ السَّفينة محوطةٌ بالعناية الإلهيَّة، فليست في خطر الغرق[3].

ومَن كابدَ ما يحدث في البحار العظيمة؛ عَرَفَ ما يحدُث فيها من ارتفاعِ الأمواج حينما تُهيِّجُها الرّياح الشَّديدة، وعَرَفَ أنَّ المبالغة في هذا التَّشبيه غير بعيدة، فإنَّ السَّفينة لتُرى كأنَّها تهبط في غورٍ عميقٍ كوادٍ سحيقٍ يُرى البحرُ من جانبيه كجبلَين عظيمَين يكادان يُطبِقان عليها، وبعد هُنيهةٍ يرى أنَّها قد اندفعت إلى أعلى الموج، كأنَّها في شاهقِ جبلٍ تريد أن تنقضَّ منه، والملّاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها؛ لئلّا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها[4].

وتشبيه الموجِ بالجبال في ضخامته هُنا إمّا لكثرة الرّياح التي تعلو الماء، وإمّا لدفع دفقات الماء الواردة من السُّيول والتقاء الأودية بالماء السّابق لها، فإنَّ حادث الطّوفان ما كان إلّا عن مثل زلازلَ تفجَّرت بها مياه الأرض، وأمطارٍ جمَّة تلتقي سيولُها مع مياه العيون، فتختلِطُ، وتجتمع، وتصبُّ في الماء الذي كان قبلها حتَّى عمَّ الماءُ جميعَ الأرض التي أراد الله إغراقَ أهلها[5].

(1) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/450، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/350.
(3) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 129.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 12/37، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/78.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74، ص:75.

توجيه ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾:

ترتيبُ الجملِ على ظاهره ولا داعي للقولِ بالتَّقديم والتَّأخير

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ له توجيهان من حيث ترتيبُه الزَّماني، فهل هو قبل نداء نوحٍ ابنه، أو بعده؟ ومعلومٌ أنَّ جملة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ﴾ معطوفةٌ على أعْلَقِ الجُمل بها اتِّصالًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾[1].

التوجيه الأول: نداءُ نوح ﷺ ابنَه كان قبل جريان السَّفينة في موجٍ كالجبال؛ إذ يتعذَّر إيقافُها بعد جريها؛ لأنَّ الرّاكبين كُلَّهم كانوا مُستقرّين في جوف السَّفينة[2]، قال بعض المحقِّقين: إنَّ هذا النِّداء إنَّما كان قبل الرُّكوب في السَّفينة[3]، وهذا يتَّجه على القولِ بأنَّ الواو اعتراضيَّةٌ، دعا إلى اعتراضِها هنا ذِكرُ ﴿مَجْرِىٰهَا﴾ إتمامًا للفائدة، ووصفًا لعِظَم اليوم، وعجيب صُنْعِ الله تعالى في تيسير نجاتهم[4]، وعلى مقتضى هذا التَّوجيه؛ ففي الكلام تقديمٌ وتأخير؛ وهو خلاف الظّاهر.

التوجيه الآخر: ترتيبُ الجمل على ظاهرِه، حيثُ أمر المؤمنين بركوبِ السَّفينة، ثم جرتِ السَّفينةُ بهم في موجٍ كالجبالِ، وهو في تلك الحال أبصَر ابنه - وكان في معزلٍ - فناداه؛ ليُنقذه، ولا يُقال ما قد قيل بأنَّه يتعذَّر إيقافُ السَّفينةِ لإركابه، بل الذي يتعذَّر هو إيقافُ العاطفةِ الأبويَّة لنداءِ الابن، لإنقاذه من الغرق الحتميِّ، بل ما الذي يمنع من إيقاف السَّفينةِ ثقةً بالله تعالى، وهو الذي قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فالذي يدعو الله ليُنجي ابنَه بعد الغرق؛ سيدعو الله لإيقاف السَّفينة قبل الغرق، وعلى هذا الوجه يتَّجه حمل الواو على الحاليَّة أو الاستئناف بل الاعتراضيَّة، وهو التَّوجيه الأوجَه، والأقربُ لصحَّة النَّظم، والسَّير على الظّاهر.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/75.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/75.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/210، والآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/74.

سرُّ التَّعبير في ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾:

بُعْدُ المنادى مكانًا وإيمانًا مع قربِ العاطفةِ الأبويَّة مدعاةٌ للنِّداءِ لا للقولِ

عبَّر القرآنُ عن خطاب نوحٍ ﷺ فيمن سيركبُ في السَّفينة بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، ولم يقل: (وناداهم أن اركبوا فيها)، وعند خطابِ الابن قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾، فاختلف التَّعبيران باختلافِ المفردة، فالأوَّل بالقول والآخر بالنِّداءِ، فيُسأل عن نكتةِ ذلك؟

والجواب: أنَّه لما خاطب الرّاكبين؛ وجَّه لهم الكلام بالقول، دون حاجةٍ للنِّداءِ، فهم قريبون من نوحٍ ﷺ، ولمّا خاطب ابنَهُ؛ فلأنَّه كان بعيدًا بمنأًى عنه، وبمكانٍ لا يصلح معه إلّا النِّداء، وهو إيماءٌ إلى تلك اللَّحظة الرَّهيبة الحاسمة التي أبصر فيها نوحٌ ﷺ ابنَه الكافرَ، وهو مُنعزلٌ عنه[1]، فنادى بأعلى صوتِه لينقذه من الغرقِ؛ وفيه من توصيف المشاعر الإنسانيَّة، وعاطفة الأبوَّة الفطريَّة، ما لا يُحيط به خيال، ولا يستوفي وصْفَهُ مقال، فجمعَ النِّداءُ الدّلالةَ على بُعدِ مكان ابن نوحٍ ﷺ، وبُعد مكانته الإيمانيَّة، مع قُربِ العاطفةِ الأبويَّة التي أنتجَت هذا النِّداءَ.

دلالةُ الواو في ﴿وَكَانَ﴾:

الانفراد عن المؤمنين كالانخراطِ في المشركين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ للحالِ، أي: نادى نوحٌ ﷺ ابنَه في حال عزلتِه التي استقرَّ فيها، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ هذه حاله التي تجعله مذمومًا، فإنَّ العزلةَ عن الإيمانِ؛ كالخلطةِ في الكفران، والانفرادَ عن المؤمنين، كالاشتراك في صفوف المشركين، وهذه جملةٌ دالَّةٌ على الضِّدّيَّة بين الابن المنعزلِ عن المؤمنين، والأب المنخرطِ فيهم، وكاشفةٌ عن البَوْن الشّاسع بين حالتَيْهما، وما أبدعَ النّظْمَ القرآنيّ: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ الدّالَّ على ذلك الانخراطِ!

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/208.

دلالةُ استعمالِ ﴿فِي﴾:

استقرارُ الكافرِ في كفرِه سببُ غرقِه وهلاكه

آثرَ النَّظمُ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ دون الباءِ؛ لبيان أنَّ ابن نوح ﷺ كان مستقرًّا في عزلةٍ حسيَّةٍ ومعنويَّةٍ، فهو معزولٌ عن أسباب النَّجاةِ الإيمانيَّة والماديَّة.

دلالةُ استعمالِ اسم المكان ﴿مَعْزِلٍ﴾:

بُعدُ المكانِ الحسيِّ والمكانةِ الإيمانيَّة

المعزل: مكان العُزلة، أي: الانفراد، وهو مَفعِل، اسمٌ للمكان، من عزله عنه؛ إذا أبعده[1]، والمعنى هنا: كان ابن نوح ﷺ في مكانٍ عزل فيه نفسَه عن أبيه والمؤمنين، أو عن دينهم، إمّا لأنَّه كان لم يؤمن بنوح ﷺ؛ فلم يصدق بوقوع الطّوفان، وإمّا لأنَّه ارتدَّ، فأنكر وقوع الطّوفان، فكفر بذلك لتكذيبه الرَّسول[2]، أو في بُعْدٍ عن السَّفينة في مكانٍ شاهقٍ خوفًا من الطّوفان، فلم ينفعه[3]؛ واللَّفظ يعمُّها[4].

الغرض من التعبير بالنِّداء: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾:

نداءُ نوحٍ ﷺ عاطفةٌ جيّاشةٌ وشفقةٌ عظيمة

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَنَادَىٰ﴾، ولم يقل: (ونادى نوح ابنه، وكان في معزل، اركب معنا) بحذف ﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ لأنَّها "إرشادٌ له ورفقٌ به"[5]، واستعمل (يا) لنداءِ البعيدِ لبيانِ بُعد الابن، وشفقة الأب عليه، وجاء المنادى بصيغة التَّصغير (بُنَيَّ) زيادةً في بيان الشَّفقة، ومضافًا إلى ياء المتكلم؛ للإشعار بالانتماءِ، فهو ابنُه لا ابن غيره.

غرضُ الأمر ﴿ٱرْكَب﴾:

إنقاذُ الغريقِ وإرشادُ الضّال رحمةٌ لا تضيع

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ هو الإنقاذُ، وترجمة الشَّفقة والرَّحمة الفطريَّة، وجاءَ التَّعبير عن الرُّكوبِ بالسَّفينةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/135.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/75.
(3) ابن الملقن، تفسير غريب القرآن، ص: 169.
(4) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/284، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/173.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/75.

بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾، دون أن يقول: (اركب في السفينة، أو فيها)؛ لتعيُّنها؛ لأنَّ غشيان الطّوفان لا تتأتّى معه مركوبةٌ سواها، وللإيذان بضيق المقام، حيث حالَ الجريضُ دون القَريضِ - كما يُقال - مع إغناء المعيَّة عن ذكرها[1].

الغرض من الكناية ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾:

دعا نوح ﷺ ابنَه إلى الإيمانِ بطريقِ الكناية، فقال له: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ فهي كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتَّحذير[2]، فدلَّ على أنَّه طلب منه الإيمان بدليل نهيه عن مُصاحبة الكافرين بعد ذلك، ونكتةُ ذلك أنَّ ابنَهُ كان كافرًا ورافضًا للدُّخولِ في دين اللّه تعالى، فآثر نوحٌ ﷺ أن يدعوه إلى الإيمانِ بطريق الدَّعوة إلى النَّجاةِ، فاستعمل الوسيلة لخدمةِ الغاية، وهذا هو مقتضى الحكمة في الدَّعوة.

الدَّعوةُ إلى الوسيلةِ لتحقيق الغاية حكمةٌ نبويَّةٌ ومنهجٌ حكيم

براعةُ التَّعبير بالمعيَّة في ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾:

ذكر المعيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ لبيانِ أنَّها سببُ النَّجاة، فمعيَّة المؤمنين نجاةٌ، والعزلةُ عنهم غرقٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: 28]، وأسند المعيَّة إلى ضمير الجمع لا إلى ضميرِ المفرد، فلم يقل: (اركب معي)، مع ما فيه من تأكيد الشَّفقة الأبويَّة؛ لبيانِ أنَّ النَّجاةَ نجاةٌ إيمانيَّة، وأنَّ ركوبَه في السَّفينة هو باعتبارِ ما اجتمعوا عليه من الإيمانِ، لا باعتبارِ ما انفرد به من الأبوَّة، فالأبوَّة دفعت نوحًا ﷺ ليُنادي، لكنَّ النَّجاة لا تكون إلّا باعتبار الإيمان.

معيَّة المؤمنين نجاةٌ والعزلةُ عنهم غرقٌ

دلالةُ عطفِ النَّهي على الأمر:

النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ معطوفٌ على

النُّكولُ عن سفينة النَّجاةِ نكولٌ عن مركبِ الإيمان

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.

الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ لإعلامه بأنَّ إعراضه عن الرُّكوب يجعله في صفِّ الكُفّار؛ إذ لا يكون إعراضه عن الرُّكوب إلّا أثرًا لتكذيبه بوقوع الطّوفان[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لا تُتابعهم في الكفر، واركب معنا، ففيه تأكيدٌ على دعوته للإيمان المكنَّى عنها بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[2]، وليس هذا التَّوكيدُ هو المقصودَ بتوكيدِ اللَّفظ للَّفظ؛ إذ لا يأتي بالعطف، بل هو توكيد المعنى للمعنى، فمعنى الأمر بالرُّكوب، هو معنى النَّهي عن البقاءِ مع الكافرين، وهو من التَّوسط بين الكمالين، فهو عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ.

سِرُّ التَّعبير بأداةِ ﴿مَّعَ﴾:

جاء التَّعبير بأداة ﴿مَّعَ﴾ دون (من) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في البُعد عنّا، فتهلك معهم، ولم يقل: (ولا تكن من الكافرين) وهو منهم، فنهاه نوحٌ ﷺ أن يكون معهم في كفرِهم خارجَ السَّفينة، ولو قال: (ولا تكن من الكافرين) لاضطرب المعنى، ذلك أنَّه ﷺ كان كافرًا قبل هذا الخطابِ، فإذا نهاه أن يكون منهم، وهو منهم؛ لكان الكلام قلقًا، فأتى التَّعبيرُ بأداة ﴿مَّعَ﴾ لبيان أنَّ النَّهي إنَّما كان للبقاءِ على الكفرِ، فمعنى ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تبقَ كافرًا، وآمنْ، بدلَ أن تبقى كافرًا معهم، فتغرق.

النَّهي عن الكون مع الكافرين خارج السَّفينة، والتَّلويح بنهيه عن الكون معهم في كفرهم

غرض شبه كمال الاتصال:

جملة ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ كلامٌ مُستأنف بيانيًّا؛ كأنَّه قيل: فما أجابه ابنُه حين سَمعَ ذلك النِّداء تخلُّصًا عن هذا الابتلاء؟ فأجيب بأنَّه قابله بإساءة الأدب لجهالتهِ عن انتفاء العاصم ما عدا الرَّبِّ، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ من الجبال الشّامخة لا يصل الماء

الحوار يقتضي الفصل بين الأقوال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/350.

إليه لارتفاعه يعصمني من الماء[1]، ففُصِلت جملة ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾ لوقوعها في سياق المحاورة[2].

دلالةُ السّين في ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾:

موجُ الإغراقِ أسرعُ من إيواءِ الجبال

كان جواب ابن نوح ﷺ لأبيه: بأنَّه سيأوي إلى جبلٍ يعصمه من الماءِ، فأتى النَّظم بحرف (السّين) للتَّعبير عن كلامه، وذلك للدَّلالة على القُرب في الفعل، أي: إنَّهُ سيجتهد بمجرَّد الانتهاء من قوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ ليعتصم به، لكنَّ أمرَ الله كان أقرب، فحال الموجُ بين الأب وابنه، فغشيه الموجُ، وأدركه الغرق، فكان أمر الله وقدَرُه أسبقَ من مسابقته التي دلَّ عليها التَّعبير بحرف (السّين) الدّالِّ على التَّوكيد والسُّرعة في التَّنفيذ.

دلالةُ التَّهكُّم في: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي﴾:

مَنْ جمَعَ إلى كفرِه وقاحةً؛ فقد تمادى فيه

دلَّ قولُه تعالى: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي﴾ على أنَّ الابنَ كان مُتماديًا في الكُفْرِ مُصرًّا عليه مُكذِّبًا لأبيه فيما أخبر عنه[3]، بل من المستكبرين عن الإيمانِ في أحلكِ الظُّروفِ، فقال مجيبًا بتهكُّمٍ عجيبٍ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[4].

الجملةُ ﴿يَعۡصِمُنِي﴾ بين الصِّفة والاستئناف:

الأولى حملُ (يَعْصِمُني) على الصِّفة لدلالةِ السّياق وقوَّة معناه

قولُه تعالى: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ إمّا أنَّه صفةٌ لجبل، أو استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه استشعر أنَّ نوحًا ﷺ يسأله: لماذا ستأوي إلى جبل؟ فقال: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[5]، فاختير الفصل لما زعم الابن أنَّ الجبل عاصم[6].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/76.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/352.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(6) القونوي، حاشية القونوي: 10/88.

والصَّحيح أنَّ هذه الجملة أقربُ أن تكون صفةً لا استئنافًا بيانيًّا، فهو يُبرهن على قوَّة هذا الجبل الذي سيعتصم به، فوصفه بأنَّه عاصم، ويُقوّي أن يكون صفةً قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ففَهِمَ نوحٌ ﷺ أنَّ ابنه يبحث عن جبلٍ متَّصفٍ بالعصمة، فقال له: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، أي: لا جبل عاصم.

دلالةُ ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾:

من قاسَ مياهَ النِّقم على مياهِ النِّعَم فقد وقع في النِّقم

ذكر الابنُ أنَّه سيعتصم بجبلٍ من الماءِ، ومعنى ﴿مِنَ﴾ الابتداء، أي: ابتداءً من وصولِ الماءِ إليه، والماء معرَّفٌ، وأراد به الابنُ الماءَ النّازلَ من السَّماء، والنّابعَ من الأرض، زعمًا منه أنَّ هذا الماء كسائر المياه والسُّيول المعتادة التي ربَّما يُتَّقى منها بالصُّعود إلى الرُّبى، وأنَّى له ذلك، وقد بلغ السَّيل الزُّبى، وجهلًا بأنَّ ذلك إنَّما كان لإهلاك الكفرة أنْ لا محيص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجَأ المؤمنين[1].

غرضُ شبه كمال الاتصال: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾:

جـــوابٌ قـاطـعٌ بمضمونٍ حتميٍّ

أجاب نوحٌ ﷺ ابنَه بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مأموره وهو الطّوفان، إلّا من رَحِمَ، فيه ذكر المهروب منه؛ وهو الماء المغرِق[2]، وهذا الجوابُ مَبْنيٌّ على سؤالٍ قد ينشأ من جواب ابنه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، فكأنَّ سائلًا قال: فماذا كان جوابُ أبيه؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ فهو استئنافٌ بيانيٌّ جاء بطريق المحاورة.

سِرُّ التعبير بنفي الجنس في ﴿لَا عَاصِمَ﴾:

أمـــرُ الـلـه إذا جاءَ؛ فلا عاصم منـه في عـالـم التَّصوُّرات

في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ نفْيُ جنس العاصم، فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجًا أوَّليًّا[3]، وهذا النفي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/210، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 13/97.

منتظم لنفي جميع أفراده ذاتًا وصفةً للمبالغة في نفي كون الجبل عاصمًا[1]، وفائدةُ هذه المبالغة تنبيهُ الابنِ على ضرورةِ الأوبة إلى الله تعالى، والدُّخول في سلك المؤمنين.

غَرَضُ الكِناية في ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

أمرُ الله قد يكونُ ماءً مغرِقًا أو شهابًا مُحرِقًا أو ريحًا محدِقًا

قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (لا عاصِمَ اليَوْمَ منْ الماء)؛ وذلك لأنَّ أمر الله تعالى جاء بجعْلِ العذابِ ماءً، وقد عبَّر عن الماء في محلِّ إضماره بأمر الله، أي: عذابه الذي أشير إليه أوَّلًا بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ للآتي:

أولًا: تفخيمُ شأنه، وتهويلٌ لأمره، فإنَّ أمر الله سبحانه لا يُغالَب، وعذابه لا يُرَدُّ[2]؛ فليس الأمر أمرَ ماءٍ يُتَّقى بالأسباب العاديَّة، وإنَّما هو انتقام من أشرارِ العباد الذين أشركوا بالله، وظلموا أنفسهم، وظلموا النّاس بطغيانهم في البلاد، فهو يحفظ مَن رحِمَهُ الله، وقد اختصَّ بهذه الرَّحمة مَنْ حملَهم في السَّفينة[3].

ثانيًا: تنبيهٌ للابن على خطئِهِ في تسميته ماءً، وتوهُّمه أنَّه كسائر المياه التي يُهرب منها إلى بعض الأمكنة المرتفعة.

ثالثًا: تمهيد لحصر العِصمة في جنابه عزَّ جارُهُ بالاستثناء بعد ذلك؛ كأنَّه قيل: لا عاصم من أمر الله إلّا هو[4].

سِرُّ التَّقييدِ بـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

الإشارة إلى أنَّه ليس كسائر الأيّام مُبالغةً في الإقناط وفي انتفاء أسباب النَّجاة

نصَّ النَّظمُ على ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع، وتلمُّ فيها الملمّات المعتادة التي ربَّما يُتَخَلَّص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العاديَّة[5]، وإنَّما قيَّده باليوم - مع أنَّه لا عاصم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/38.
(4) البروسوي، روح البيان: 4/131.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.

في جميع الأزمان سوى الرَّحمن - مُبالغةً في الإقناط، وفي انتفاء الأسباب العادية للنَّجاة في هذا اليوم، فلا مفهوم لهذا بالاتفاق، ولهذه النكتة قال: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ مع أنَّ السِّياق يقتضيه[1].

سرُّ الإضافةِ في ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾:

تعظيم شأن هذا الأمر؛ لأنَّه أمرُ العظيم ﷻ

أُضيف الأمر للفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لتهويل الأمر، وتعظيم شأنه، أي: الملك الأعظم المحيط أمره وقدرته وعلمه بكلِّ شيء، وأمرهُ هُنا هو حُكمه بالغرق على كلِّ ذي روحٍ لا يعيش في الماء[2].

دلالةُ الموصول في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾:

العِصمةُ أثرٌ من آثارِ صفة الرَّحمة

مقتضى ظاهر النَّظم: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا هو)، أي: لا أحد يعصم اليوم من أمر الله إلّا الله، والعدول إلى اختيار الموصول لزيادة التَّفخيم، وللتَّنبيه على أنَّ العِصمة من آثار صفة الرَّحمة[3].

نكتةُ أسلوب القَصْر:

كثرةُ الاحتمالاتِ وتنوع الدّلالات أمارة الإيجاز وبرهان الإعجاز

في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف، وفيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأوَّل: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ اسمُ فاعلٍ على بابه؛ فعلى هذا يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: استثناء مُتَّصل، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ بمعنى الرّاحم، أي: لا عاصم إلّا الله، تفخيمًا لشأنه الجليل بالإبهام ثُمَّ التَّفسير، وبالإجمال ثُمَّ التَّفصيل، وإشعارًا بعلّيَّة رحمته في ذلك بموجب سَبْقِها على غضبه.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/289.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.

الثّاني: استثناءٌ مُنقطع، أي: لكن مَن رَحِمهُ الله يعصمه.

الوجه الثّاني: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، مثل: ماء دافق، أي: مدفوق، فعلى هذا يكون الاستثناء مُتَّصلًا، أي: إلّا مَن رحمهُ الله.

الوجه الثّالث: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى: ذي عصمة على النَّسب، مثل: حائض وطالق؛ فالاستثناء على هذا مُتَّصل أيضًا، ولا يجوز أن يكون خبرُ ﴿لَا﴾ على هذا ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ لأنَّ ظرف الزَّمان لا يكون خبرًا عن الجُثَّة، بل الخبر ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ معمولٌ ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ولا يجوز أن يكون ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ معمولَ ﴿عَاصِمَ﴾؛ إذ لو كان كذلك لنوِّن[1]. فالاحتمالات المُمكنة هُنا أربعة: لا عاصم إلّا راحمٌ، ولا معصوم إلّا مرحومٌ، ولا عاصم إلّا مرحومٌ، ولا معصوم إلّا راحمٌ، فالأوَّلان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس، فيكون منقطعًا[2]، والغرض من التعبير بالقصر تمكينُ المعنى وإيجازه، والمبالغة في المعنى، واصطفى النظمُ الكريم طريقَ النفي والاستثناء لكونه أقوى الطُّرق في مواجهة المنكرين، وهو الأنسَبُ بالسِّياق الكاشف عن مقالة الابنِ العاقِّ وظنِّه أنَّ غير الله يعصمهُ ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي﴾.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿وَحَالَ﴾: فصلَ الموجُ بهديره وسُرعته بين الابن وأبيه، بحيث لم يبقَ أحدُهما يُشاهد الآخر، ولم يسمع صوته ولا يرى إشارته؛ لأنَّه بعد ما طافت السَّفينة ارتفع ارتفاعًا هائلًا، وصار لِشِدَّة عُلوِّه كالسَّدِّ بينهما، وقد شبَّه الله الموجَ بالجبال لعظم ارتفاعه[3]، والتَّعبير بلفظة (حالَ) يُشعرُ بسرعة

سُرعة فصلِ الماء بين المتحاورين؛ عـــذابٌ لـلابـنِ ونجاةٌ للأب

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/357.

(2) البروسوي، روح البيان: 4/131، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/357، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/352.

(3) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/119.

فيضان الماء واشتداده، حتَّى لكأنَّ هذه السُّرعة لم تُمهلهما ليُكملا حديثهما[1].

الغرض من تقديم شبه الجملة الظرفية:

حيلولة الموجِ بين الأب والابن مقصودةٌ لقطع الحوار وإيقاف الكلام

قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾، ولم يقل: (وحال الموج بينهما)؛ لبيان أنَّ حيلولة الموج بين الأب وابنه في آخر المحاورة مقصودةٌ أن تكون بينهما، وتقطع حديثهما، وهي تُشير إلى سرعة فيضان الماء حينَ المحاورة[2]، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتَّى حال بين الولد ووالده، فكان من المغرقين الهالكين[3]، فكما فرَّق الضَّلال بين الابن وأبيه سابقًا، حتَّى ليأبى الولد، وهو بين يدي هذا البلاء المحيط به، أن يستجيب لأبيه، وأن يستمع له، فيخرج عن أمره، وهو يدعوه إلى ما فيه سلامته ونجاته، فكذلك يحول الموج بين مَن نجا ومَن هلك، ويوفَّى كلٌّ من الأب والابن جزاء ما كسب، فينجو الأب بإيمانه، ويهلك الابن الكافر بكفره[4].

دلالة استعمال الفاء في: ﴿فَكَانَ﴾:

وقـع الإغـراقُ بغير مُهلةٍ بعد حيلولة الماء بعجلةٍ

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ إنَّما يتفرَّع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه، لا بينه وبين الجبل؛ لأنَّه بمعزلٍ عن كونه عاصمًا، وإن لم يحُلْ بينه وبين الملتجأ إليه موج، وأُجيب بأنَّ التَّفريع لا يُنافي ذلك؛ لأنَّ المُراد: فكان من غير مُهْلَةٍ أو هو بناء على ظَنِّهِ أنَّ الماء لا يصل إليه، وفي الآية دلالةٌ على غرق سائر الكفرة على أبلغ وجهٍ، فَكَأنَّ ذلك أمرٌ مُقرَّرُ الوقوع غيرُ مفتقرٍ إلى البيان[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/208.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/38.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1141.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.

دلالة التعبير بالفعل النّاقص ﴿فَكَانَ﴾:

بيان كونه من المغرقين في علم الله وبالماء بعد الطوفان

استعمال ﴿فَكَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ دون أن يقول: (فغرق)؛ للإيماءِ بأنَّه كان منهم في حكم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بعد أن اختار طريق الكفر، فهو كان حيًّا بينهم قبل الإغراق، مطمئنًّا إلى كُفرهم، ساعيًا بمعتقدِهم، فكان منهم قبل الإغراق، وكان منهم بعده.

ويَحتمل الفعل النّاقص ﴿فَكَانَ﴾ معنى: صار من المغرقين، ويحتمل كان في علم الله أنَّه يغرق، فالمعنى: فكان من المغرقين في علم الله بالفعل، وصار من المغرقين بالماء، وفي إيراد ﴿فَكَانَ﴾ دون (صار) مُبالغةٌ في كونه منهم[1].

دلالة استعمال حرف الجر ﴿مِنَ﴾:

الدَّلالة على هلاك سائر الكفرة

حرف ﴿مِنَ﴾ للتبعيض في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، أي: فكان مُغرَقًا من الغارقين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه غرقَ مع الآخرين، وليس وحده، بل غرقَ معه كلُّ من كان على شاكلته في الكفر ممَّن توعَّده الله بالغرق[2]، ففيه دلالةٌ على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه، وهو إيجازٌ بديع[3].

سرُّ اختيار ﴿مِنَ﴾:

التَّنبيه على أنَّ حِفظَ الأديان سببٌ لحفظ النفوس والأبدان

جاءَ اختيارُ حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، ولم يقل: (مع المغرقين) إشارةً إلى أنَّ من له عقلٌ وهمَّة ينبغي أن يكون تحفُّظُه على صون نفسِه؛ لأنَّ حفظَ الأديان له حظٌّ من حفظ النُّفوس[4]، والمعيَّةُ ثابتةٌ له ابتداءً، فهو مع المغرقين قبل الغرق،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 6/134، والبروسوي، روح البيان: 4/131، والقنوجي، فتح البيان: 6/186.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.

(3) البروسويُّ، روح البيان: 4/131.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.

ومنهم بعد الغرق، ولو قال: (فكان مع المغرقين) لظُنَّ أنَّه لم يكن كافرًا، وأصبح اليوم معهم، فاستعمال ﴿مِنَ﴾ يستلزم المعيَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العصمة والحفظ:

في العصمة معنى المنع، وهي أشمل من الحفظ، وفي الحفظ معنى التَّفقُّد والتَّعهُّد والرِّعاية

العصمة تطلق على معانٍ عدَّة ترجعُ إلى المنع، قال في اللِّسان: "العصمة في كلام العرب: المنع، وعِصْمة الله عبدَه: أن يعصمه ممّا يوبِقُه، يُقال: عصمه يعصمه عَصْمًا: منعه ووقاه"[1]، ويُقال: عصمته من الطَّعام؛ أي: منعته عن تناوله، وعصمته من الكذب، أي: منعتُه منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، أي: يمنعني من الغرق، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: 32]، أي: امتنعَ امتناعًا شديدًا، وجاء في الحديث: «أُمِرْت أن أقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، فمَن قالَها؛ فقد عصَمَ منِّي مالَه ونفسَه»[2] أي: منع منّي مالَه ونفسه، وسمِّيت العصمة عصمةً؛ لأنَّها تمنع من ارتكاب المعصية[3].

فعلى هذا المعنى للعِصْمة يكون قول بعضِهم: العصمة لله وحْده؛ غيرَ صحيح؛ لأنَّ العصمة إنَّما تكون من الجرائم والذُّنوب، ولا يصحُّ نِسْبتها إلى الله ﷻ، أمّا الحفظُ فمن معاني العصمة، ويزيد عليها أنَّ من معانيه ضبْطَ الشَّيء في النَّفس، ويُضادُّه النِّسيان والإضاعة[4]، ويُستعمل الحفظ في كلِّ تفقُّدٍ وتَعَهُّدٍ ورعاية[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عصم).
(2) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم: (1312)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، برقم: (20).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/184.
(4) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 26.
(5) المناوي، التَّوقيف، ص: 142.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»